

من صحابة الرسول

المجموعة الثانية

٦

عبد الله
بن مسعود

فاطيس محمد عزت

عبدُ اللهِ بنُ مَسعود

رجع ممدوحٌ من المدرسة ، ودخلَ على والدِهِ وهو فرحان ، وقال :

- انظر يا أبى ماذا وجدت ؟ وجدتُ ساعةً رَقْمِيَّةً رائعةً !

قال والدُهُ : مهلاً يا ممدوح ، واحك لي القِصَّة من أولها .

قال ممدوح : بينما كنتُ ألعبُ في فناءِ المدرسة ، وفي أثناءِ الفُسْحَةِ ، وجدتُ هذه الساعةَ مُلقاةً على الأرض . انظر يا أبى ، إنها ساعةٌ رَقْمِيَّةٌ ، بها آلةٌ حاسِبَةٌ ، ولعبةٌ إلكترونيَّةٌ .. كم أنا محظوظ !

تعجَّب والدُهُ وقال : محظوظ ! لماذا ؟ أتسوى أن تحتفظَ بها لنفسِكَ؟

قال ممدوح : ولماذا لا أحتفظُ بها لنفسي ؟ فقد وجدتُها فهي حقٌّ لي .

قال والدُه : من قال ذلك ؟ إنَّ هذه السَّاعةِ صاحبها ، ولا بدَّ أنَّه حزنَ لفقدِها وبَحَثَ عنها كثيرا . وأعتقِدُ أنَّه أبلغَ إدارةَ المدرِسةِ بفقدِها .

قال ممدوح : أتعني يا أبى أنى لا أستطيعُ أن أذهبَ بها إلى المدرِسةِ ؟ حسنا ! سأستعملُها هنا فى البيت . غَضِبَ والدُه وقال : ألا تفهمُ قصدى يا ممدوح ؟ إنَّ هذه السَّاعةَ ليستُ حقًّا لك . فالأمانةُ تقضى أن تذهبَ وتُسَلِّمَها لإدارةَ المدرِسةِ ، فتُسَلِّمَها إدارةَ المدرِسةِ بدورها إلى صاحبِها .

فسكتَ ممدوحٌ ولم يُعلّقْ على كلامِ والدِه ، فقال له والدُه : أتعلّمُ يا ممدوحُ يا ولدى أنَّ هذه السَّاعةَ الَّتى وجدتُها ، هى بَمِثَابَةِ اخْتِبارٍ لك ولأمانَتِكَ ، فإنَّ نَجَحْتَ فى الاختِبارِ ، وردَدْتُها لصاحبِها ، سيُكَافِئُكَ

اللَّهُ بأفضلِ منها ، ولا يَتَحَتَّمُ أن تكونَ المُكَافَأَةُ
مادِّيَّةً ، فقد تكونُ مُكَافَأَةً مَعْنَوِيَّةً .

تعجَّب ممدوحٌ من كلامِ والدِه ، وسأله : وكيف
ذلك يا أبى ؟

قال والدُه : سأحكى لك قِصَّةً واحدٍ من صحابةِ
رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كانتِ الأمانةُ
من أبرزِ صفاته ، حتَّى قبلَ أن يعتنقَ الإسلامَ .
وستعجبُكَ قصَّتُه ، وسوف تُفيدُكَ إن شاءَ اللَّهُ .

سألَ ممدوح : ومن هو يا أبى ؟

قال والدُه : هو عبدُ اللَّهِ بنُ مسعود ، أو « ابنُ أمِّ
عُبد » كما كان الناسُ يُطلقونَ عليه . وكان أوَّلُ
عهدِ عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ بالرسولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وسَلَّمَ - وهو غلامٌ صَغِيرٌ يرعى الغنمَ لسيِّده « عُقبَةُ
بنِ أبى معيط » ، فكان يخرجُ بها من البُكور ، ولا
يعودُ بها إلَّا إذا أقبلَ الليلُ .

وحدث ذاتَ يوم وهو يرعى الغنمَ فى شِعبِ
مَكَّةَ ، أن أقبلَ عليه كَهْلانِ تبدو عليهما آثارُ التعبِ
والعَطشِ الشَّدِيدِ ، وما كان هذان الكَهْلانِ سوى
رسولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وصاحبِهِ أبى
بكر الصِّدِّيقِ ، وطلبا منه بعضَ اللَّبنِ . قالَا له :
احلبْ لنا يا غُلامُ من هذه الشَّياه ما نُطفئُ بِهِ ظَمَأَنَا ،
ونبلُّ بِهِ عُروقَنَا .

فرفضَ عبدُ اللَّهِ وقال : إننى مُؤتمِنٌ عليها ، ولستُ
ساقِيكما منها .

تعجَّب مَمْدُوحٌ وقال : أرفضُ أن يُعطِيهما بعضَ
اللَّبنِ ، ولم يكن سيِّدُهُ ليلْحَظَ شيئاً .

قال والدُّهُ : إنها الأمانةُ يا وَلدى ، وهذا ما كنتُ
أقولُهُ لك . . .

إنَّهُ مُؤتمِنٌ على شَيْءٍ ، فليسَ من حَقِّهِ أن يُفَرِّطَ
فيه أو يُضَيِّعَهُ .

عِنْدُنِي طَلَبَ مِنْهُ الرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -
أَنْ يَدُلَّهُ عَلَى شَاةٍ صَغِيرَةٍ لَمْ تَوْطَأْ^(١) بَعْدَ ، فَمَسَحَ عَلَى
ضَرْعِهَا بِيَدِهِ الْكَرِيمَةِ وَذَكَرَ عَلَيْهَا اسْمَ اللَّهِ وَدَعَا ،
فَامْتَلَأَ ضَرْعُ الشَّاةِ بِاللَّبَنِ . وَجَاءَهُ أَبُو بَكْرٍ بِصَخْرَةٍ
مُقْعَرَةٍ فَحَلَبَ الشَّاةَ فِيهَا ، وَشَرِبَ الْكَهْلَانُ وَسَقَى
الْغُلَامَ حَتَّى ارْتَوَوْا جَمِيعًا . ثُمَّ أَمَرَ الرَّسُولُ ضَرْعَ
الشَّاةِ أَنْ يَتَقَلَّصَ ، فَتَقَلَّصَ .

هَنَالِكَ تَعَجَّبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ، وَقَالَ :
عَلِمْنِي مِنْ هَذَا الْقَوْلِ الَّذِي قُلْتَهُ .

فَقَالَ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : إِنَّكَ فَتَى مُعَلِّمٍ .
وَكَانَ هَذَا أَوَّلَ لِقَاءِ لَعَبْدِ اللَّهِ بِالرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَقَدْ أُعْجِبَ الرَّسُولُ بِأَمَانَتِهِ وَإِخْلَاصِهِ ،
وَتَوَسَّعَ فِيهِ الْخَيْرُ .

(١) تَوْطَأُ : تَنْكُحُ ، تَتَزَوَّجُ .

ولم يَمْضِ على هذا اللقاء إلا وقتٌ قليل ، حتّى
أقبلَ عبدُ اللَّهِ على الرّسولِ - صَلَّى اللَّهُ عليه وسلّم -
وأعلنَ إسلامه ، فكان من العَشْرَةِ الأوائل ، الذين
أسلموا قبل دُخولِ الإسلامِ بيتَ الأرقم . وعرضَ
عبدُ اللَّهِ نَفْسَهُ لخدمَةِ الرّسولِ ، فلازمه في غُدُوّه
ورَواحِهِ ، فكان يُلبِسُهُ ثوبَهُ ، ويَحْمِلُ عَنْهُ عَصَاهُ ،
ويوقِظُهُ إذا نام . وبلغَ من حُبِّ الرّسولِ إِيّاهُ أن كانَ
يَسْمَحُ لَهُ بالدُّخولِ عَلَيْهِ وقتَما يَشَاءُ ، ويُطْلِعُهُ على
سِرِّهِ ، حتّى دُعِيَ بِصَاحِبِ سِرِّ رَسولِ اللَّهِ - صَلَّى
اللَّهُ عليه وسلّم - وقد غَنِمَ عبدُ اللَّهِ الكَثِيرَ من مُلَازِمَةِ
الرّسولِ ، فاهْتَدَى بهدْيِهِ ، وتَخَلَّقَ بِأَخْلَاقِهِ ، وتَابَعَهُ في
كُلِّ خَصَلَةٍ من خِصَالِهِ ، حتّى قيلَ عنه إِنَّهُ أَقْرَبُ
النَّاسِ إلى رَسولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عليه وسلّم - هَدِيًّا
وسَمْتًا .

قال ممدوح : ياله من غنم غنمه ، فهنيئاً له صحبة
الرَّسول .

قال والدّه : وفضلاً عن ذلك ، فقد حفظ القرآن
الكريم عن الرَّسول نفسه ، فكان من أقرأ الصحابة
للقرآن ، وافهمهم لمعانيه ، وأعلمهم بشرع الله .
فنجده يقول عن نفسه : أخذت من فم الرَّسول -
صلى الله عليه وسلم - سبعين سورة لا يُنازعني فيها
أحد .

وفي ذات يوم وهو يُصلى بالمسجد ، أقبل عليه
الرَّسول - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر وعمر بن
الخطّاب - رضی الله عنهم جميعاً - فاستمعوا
لصلاته ، فقال لهم رسول الله : من سرّه أن يقرأ
القرآن رطباً كما نزل ، فليقرأه على قراءة « ابن أمّ
عبد » .

وما أن انتهَى عبدُ الله من صلاتِهِ ودعا رَبَّهُ ، حتَّى
أَمَّنَ الرَّسُولُ على دُعائِهِ وقال : سَلْ تُعْطَ .. سَلْ
تُعْطَ .

قال ممدوح : لقد حظيَ عبدُ الله بِحُبِّ الرَّسُولِ -
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَكَرَمِهِ وَعَظْفِهِ .

قال والدُه : ولمَ لا يا وَلَدِي ؟ فقدَ تَكَبَّدَ عبدُ الله
الكثير - مِثْلَ باقى الصَّحابة - لِنَشْرِ دِينِ اللهِ ونُصْرَةِ
الإسلام . أتعَلَّمُ يا ممدوح أَنَّ عبدَ الله بنَ مَسْعُودٍ ،
هو أوَّلُ صادِحٍ للقرآنِ بعدَ رسولِ الله - صَلَّى اللهُ
عليه وَسَلَّمَ - ؟ فذاتَ يومٍ وهو مُجْتَمِعٌ بَعْضُ
الصَّحابة ، قال أحدهم : والله ما سَمِعْتُ قُرَيْشَ هَذَا
القرآنَ يُجْهَرُ بِهِ قَطً ، فمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُمْ إِيَّاهُ ؟
فقال عبدُ الله : أنا أُسْمِعُهُمْ إِيَّاهُ .

فأنكَرَ أَصْحابُه عليه تطوُّعَه ، فَإِنَّهُ أَجِيرٌ لِأَحَدٍ سَادَةٍ
مَكَّةَ ، ضَعِيفٌ لَيْسَ لَهُ مَنْ يَمْنَعُهُ مِنْ بَطِشِ قُرَيْشٍ .

ولكنَّ عبدَ اللَّهِ بثَّقَتِهِ بِاللَّهِ ، وبِإِيْمَانِ رَاسِخٍ ، قال :
إِنَّ اللَّهَ يَمْنَعُنِي .

وفى الضُّحَى والنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ بِأَنْدِيَّتِهِمْ ، بدأ عبدُ
اللَّهِ تِلَاوَتَهُ بِصَوْتٍ مُرْتَفِعٍ يَسْمَعُهُ الْجَمِيعُ : بِسْمِ اللَّهِ
الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ
الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ... فَبَهَتَ الْجَمِيعُ مِمَّا
أَسْمَعَهُمْ عبدُ اللَّهِ ، ثُمَّ انْهَالُوا عَلَيْهِ ضَرْبًا وَقَذْفًا
بِالْحِجَارَةِ ، حَتَّى أَذْمَوْهُ ، وَأَصَابُوا وَجْهَهُ وَجَسَدَهُ .
هُنَالِكَ قَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ : هَذَا مَا خَشَيْنَاهُ عَلَيْكَ .

فَرَدُّ عَلَيْهِمْ : مَا كَانَ أَعْدَاءُ اللَّهِ أَهْوَنَ عَلَى مَنْهُمْ
الْآنَ ، وَلَنْ شِئْتُمْ لِأَغَادِيْنَهُمْ بِمِثْلِهَا غَدًا .

قالوا : حَسْبُكَ ، فَقَدْ أَسْمَعْتَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ .

قالَ ممدوح : حَقًّا إِنَّ عبدَ اللَّهِ يَتَمَتَّعُ بِشَجَاعَةٍ
عَظِيمَةٍ ، فَقَدْ قَامَ بِعَمَلٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْكَثِيرُونَ .

قال والدّه : فعلاً هى شجاعة وإقدام ، وقبل كلّ شىء هى إيمانٌ راسخ ، وثقةٌ بالله عزّ وجلّ . هذا مع أن عبد الله كان هزياً يكاد يصل طوله وهو واقف إلى طول القاعد ، ومع ذلك كان راسخاً قوياً ، ذا إرادة جبّارة ، وقوة لا حدود لها .

هذا وقد شارك فى جميع الغزوات مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وكان له موقف رائع يوم بدر مع أبى جهل .

قال ممدوح : درسنا فى المدرسة أن عبد الله بن مسعود ، كان من العشرة المبشرين بالجنة .

قال والدّه : هذا صحيح ، فقد بشره - صلى الله عليه وسلم - بالجنة . فذات يوم والرسول وبعض الصحابة مجتمعون ، رأوا عبد الله وهو فوق شجرة يجمع الأراك ، فضحك الصحابة من رجلى عبد الله ودقتهما ونحافتهما ونحالتهما . هنالك قال - صلى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : تَضَحِكُونَ مِنْ سَاقِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ، إِنَّهُمَا أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ جَبَلٍ أَحَدٍ .

قَالَ مَمْدُوح : إِنَّ سِيرَةَ عَبْدِ اللَّهِ شَائِقَةٌ جَدًّا يَا أَبِي ، فَأَكْمِلْ قِصَّتَهُ . مَاذَا عَنْهُ أَيْضًا ؟

قَالَ وَالِدُهُ : عَلَى الرَّغْمِ مِنْ غَزَاةٍ عَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ ، وَاجْتِلَالِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لَهُ وَلِعَلِّمِهِ وَإِيمَانِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ عِنْدَمَا يُحَدِّثُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَرْتَعِدُ وَيَرْتَجِفُ وَيَتَصَبَّبُ عَرْقًا ، خَوْفًا مِنْ أَنْ يَنْسِيَ ، أَوْ يَضَعَ حَرْفًا مَكَانَ حَرْفٍ .

قَالَ مَمْدُوح : أَلِهَذِهِ الدَّرَجَةُ ؟

قَالَ وَالِدُهُ : إِنَّهُ نَوْعٌ آخَرُ مِنَ الْأَمَانَةِ .. أَمَانَةُ الْكَلِمَةِ .

وقد عَرَفَ الصَّحَابَةُ قَدَرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ ،
فَوَلَّاهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِمَارَةَ الْكُوفَةِ ، وَقَالَ لِأَهْلِهَا
حِينَ أَرْسَلَهُ إِلَيْهِمْ :

- إِنِّي وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ، قَدْ آثَرْتُكُمْ عَلَى
نَفْسِي ، فَخُذُوا مِنْهُ وَتَعَلَّمُوا .

وعلى غير عَادَةِ أَهْلِ الْكُوفَةِ ، الَّذِينَ كَانَ يُعْرِفُ
عَنْهُمْ كَثْرَةُ التَّقَلُّبِ وَالتَّمَرُّدِ وَالثُّورَةِ ، أَحَبُّهُ وَأَعَزُّهُ
وَأَجَلُّهُ حَتَّى إِنَّهُمْ رَفَضُوا إِقَالَتَهُ فِي عَهْدِ الْخَلِيفَةِ
عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ ، وَلَكِنَّهُ أَبِي إِلَّا أَنْ يُنْفَذَ أَمْرُ الْخَلِيفَةِ
الْجَدِيدِ ، مَنَعَا لِلْفِتَنِ وَالْقَلَاqِلِ .

وَمَرَضَ عَبْدُ اللَّهِ مَرَضَ الْمَوْتِ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ بْنِ
عَفَّانَ ، وَزَارَهُ الْخَلِيفَةُ عُثْمَانُ وَسَأَلَهُ : مَا تَشْكُو ؟
قَالَ : ذُنُوبِي .

قَالَ عُثْمَانُ : فَمَا تَشْتَهِي ؟

قَالَ : رَحْمَةَ رَبِّي .

قال ممدوح : الرجل مثل هذا ذنوبٌ يخافُ منها ؟
إنه مثالٌ للإيمان ، حفظَ القرآنَ وعَلَّمه ، وعاصرَ
رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وتعلَّم منه ،
وجاهدَ في سَبِيلِ اللَّهِ . فضلاً عن أنه من المبشرين
بالجنة .

قال والده : إنه التَّارُجُحُ بين الخوفِ والرَّجاءِ . إنه
يخشى اللَّهَ وفي ذاتِ الوقتِ يَتمنى عَفْوَهَ وِرِضاهُ .
وفي السَّنةِ الثَّانيةِ والثلاثينِ من الهجرة ، لحقَ عبدُ
اللَّهِ بالرَّفِيقِ الأعلى ، ولسانُهُ رَطْبٌ بذكرِ اللَّهِ ، نَدَى
بآيَاتِهِ البَيِّنَاتِ . . .

وصلىَّ عليه جُمُوعُ المُسْلِمِينَ ، ودُفِنَ بالبقيعِ في
المدينةِ المُنَوَّرَةِ .

قال ممدوح : يا لها من قِصَّةِ رَجُلٍ عابِدٍ زاهدٍ ،
مُجاهِدٍ في سَبِيلِ اللَّهِ . إنَّها بالفعلِ قِصَّةٌ مُفيدةٌ
ومُسليةٌ .

قال والدّه : وماذا عن السّاعة يا ممّدوح ؟
قال ممّدوح : غداً إن شاء الله أسلّمها لإدارة
المدرسة .

وفى اليوم التّالى عاد ممّدوح من المدرسة ، وهو
فرح سعيد ، يحملُ وساماً سلّمه إياه ناظرُ المدرسة ،
تقديراً لآمانته وأخلاقه الكريمة .